حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً

فضـــل الحـــج

قـــال تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ٩٧) .

ومناسبة مجيء الكفر هنا هو أن المستغني الرافض للحج داخل في دائرة خطـــيرة. وقال تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج ٢٧) .

ونرى هنا كلمة " أذّن " تعني : أوصل الصوت للناس وأسماعهم فقط واجعل كلمة الحج تملأ الآذان و ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ تعني مرتجلين على أقدامهم ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ يريد أن يقول : إنهم سيأتون من كل مكان على خيل متعبة من طول المسافة، فأصبحت الخيل ضامرة أي متعبة من كل فج عميق. ولذا فأنا أدعو القرّاء ممن بلغهم هذا الأذان وكانوا يستطيعون الإجابة هذا العام ولم يفعلوا أن يجددوا النية للعام القادم إن شاء الله.

ويقول ﷺ : " من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيـــوم ولدته أمه" رواه البخاري ١٨١٩، ومسلم الحديث ٣٢٧٨، والترمذي ٨١١ والإمام أحمد ٤١٠. ومعنى يرفث: أي يقرب النساء، ولم يفسق، يعني لم يرتكب معصية. ويقول النبي ﷺ :" العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة " ، ويقول ﷺ : " الحجّاج العمّار وفد الله تعالى " وتخيل أخي المؤمـــن عندما تكون وافدا على الله تبارك وتعالى، ونحن نعلم ما الذي يفعل مع الوفود من البشر من حيث حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة، وهذا من البشر للبشر، فما بالنا باستقبال المولى عز وجل لوفده؟ لكي تتذوق ذلك يكفي أن تذهب للحج والعمرة وسترى إن شاء الله

كيف تكون حفاوة الله واستقباله لك، وحديث رسول الله ﷺ يقول:" الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم" ابن ماجه ٢٨٩٢. ويقول ﷺ : " يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج" ، فقيل : أوكل عام يا رسول الله ؟ فسكت ﷺ ، فقال الرجل : أوكل عام يا رسول الله ؟ فقال النبي ﷺ : " لو قلت نعم لوجبت وما استطعتم ". وحديث النبي ﷺ " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحجّ البيت لمن استطاع إليه سبيلا" رواه البخاري ٨ ومسلم ١١٤ والإمام أحمد ١٤٣\٢. وحقيقة أنا لا أعرف إذا كنت تعلم أن أغلب الأنبياء قد حجوا بيت الله الحرام، مما يدل على أن هذه عبادة من لدن إبراهيم عليه السلام الذي قام برفع القواعد من البيت استجابة لأمر الله تبارك وتعالى. وإليك حديث رسول الله ﷺ يقول فيه وهو يمر بوادي بين مكة والمدينة متجها إلى مكة للحج:" يا أبا بكر مرّ بهذا الوادي هود وصالح يريدون حجّ بيت الله الحرام" وفي رواية أخرى يقول ﷺ :" إن هذا البيت قد حجّه سبعون من الأنبياء" وفي رواية أخرى : " منهم موسى نبي الله".

وسيدنا عمر رضي الله عنه له كلمة شديدة في تاركي الحج حيث يقول: (والله لقد هممت أن أبعث في الأمصار أن من كان غنيا ويجب عليه الحج ولم يحج فافرضوا عليه الجزية !) إذن الحج فرض على المستطيع. ويقول سعيد بن جبير في كلمة عجيبة تدل على عظم ترك الحج على المستطيع يقول: (لو علمت أن في البلدة التي أعيش فيها غني من الأغنياء كان يستطيع الحج ولم يحج ومات على ذلك ما صليت عليه الجنازة!) وسعيد بن جبير عالم وفقيه من أئمة السلف. ويقول ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ المؤمنون ٩٩-١٠٠. قال ابن عباس: (أعمل صالحا فيما تركت يعني الحج والزكاة حيث تذكر أنه يجب عليه أن يخرج للحج ويؤدي زكاته ولم يفعل) وفي حديث للنبي ﷺ : أن امرأة جاءت للنبي ﷺ فرفعت صبيا وقالت : يا رسول الله ألهذا حج؟ فقال ﷺ : " نعم ولك الأجر" رواه مسلم ٣٢٤٠.

ما يجب على الحاج فعله

هناك أمور يجب على الحاج فعلها قبل السفر استعدادًا لأداء هذه الفريضة:

أولاً : التوبة .. بمعنى : إياك أن تحج أو تعتمر وأنت تنوي أن تعود إلى المعصية، فالتوبة مهمة جدًا، وإلا فكيف بك تفد على الله في بيته الحرام وتدعوه أن يغفر لك ويرحمك وأنت تنوي أن تعصيه مرة أخرى بعد العودة؟! ويقول أحد العلماء: أخشى أن يخرج من ينوي الحج وهو يصر على أن يعود إلى المعصية وينادي: لبيك اللهم لبيك فيرد الله عليه: لا لبيك ولا سعديك، لأنه كان ينوي الرجوع إلى المعصية مرة أخرى، فلا بد من التوبة والرجوع إلى الله، وأن تقول في نفسك: يا رب تبت وندمت ولن أعود إلى الذنوب مرة أخرى، وتعاهد الله خالصًا : يا رب إني قد خلعت قلبي من كل معصية ومن كل شهوة ومن كل إصرار على ذنب ومن كل فتنة تملكت قلبي قبل أن أخرج للحج أو للعمرة.

ثانيًا : قضاء الديون : وهي أن تخرج كل الديون لأصحابها ، وإن كانت عليك ديون لا تستطيع أداءها فعليك استئذان أصحابها، ولو رفضوا الإذن لك فلا تخرج للحج، وتلك هي عظمة هذا الدين.

ثالثًا: رد الودائع، وإبلاغ أصحابها بأنك مسافر للحج.

رابعًا : ردّ المظالم ، ومعناه : إن كنت قد ظلمت شخصا فعليك أن ترد مظلمته بالذهاب إليه وطلب السماح والصفح، حتى تطهر نفسك من حقوق العباد قبل السفر.

خامسًا : إخلاص النية ، بمعنى ألا تحج أو تعتمر طلبا للسمعة أو الشهرة أو ابتغاء المنفعة أو التجارة، وفي الحج يمكنك أن تتاجر لكنك لم تخرج أصلا بهذه النية التي يجب أن تكون خالصة لله عز وجل.

سادسًا : توديع الأهل ، وهذه سنة الرسول ﷺ، وتقول لهم الدعاء المأثور (أستودع الله دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم) وتسلم على زوجتك وتقول لها نفس الدعاء.

سـابعًا: أن تصـلي ركعتين في بيتك تكون الأولى بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ والثانية بسورة الإخلاص، حتى تخرج نقيًا مصرًا على هذا الإخلاص.

ثامنًا : أن تعاهد نفسك على:

١ - ألا ترتكب معصية بأرض الحج.

٢ - أن توقر سنة النبي ﷺ توقيرًا شديدًا لأنك في بلد الله الحرام.

٣ - أن يكون قصدك ونيتك إرضاء الله تعالى.

٤ - أن تستفرغ وتقطع نفسك للعبادة وليس للشراء مثل ما يحدث من بعض الناس، والشراء يكون بعد الانتهاء من العبادة بنية الترويح على النفس.

٥ - ترك الجدل والمخاصمة والشجار وعدم الانشغال بالناس. وأحد التابعين كان ينوي الحج أو العمرة يقول: لقد تصدقت بجسدي على المسلمين،، بمعنى أن أي فعل يتم تجاه جسدي في الحج، مثل ما يحدث من التدافع والضرب وغيره فهذا صدقة.

آثار الحج ومقاصده بين الواقع والمطلوب

إن للحج مقاصد شتى وأهدافًا عظيمة منها :

١ - الارتباط بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام من لدن أبينا إبراهيم وبنائه للبيت إلى نبينا محمد ﷺ وتعظيمه لحرمة مكة، فيتذكر الحاج حين تردده في المشاعر وأدائه للشعائر تردد أولئك المطهرين في هذه البقاع الشريفة. فيرتبط في ذهنه سيرهم ويتجذر في قلبه الاقتداء بهم. روى مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَمَرَرْنَا بِوَادٍ فَقَالَ: أَيُّ وَادٍ هَذَا فَقَالُوا: وَادِي الأَزْرَقِ فَقَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى ﷺ

فَذَكَرَ مِنْ لَوْنِهِ وَشَعَرِهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ دَاوُدُ وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ لَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي قَالَ ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ فَقَالَ أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ قَالُوا هَرْشَى أَوْ لِفْتٌ فَقَالَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ خِطَامُ نَاقَتِهِ لِيفٌ خُلْبَةٌ مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي مُلَبِّيًا.

٢ – بياض اللباس ونقاؤه إشارة إلى طهارة الباطن ونقاء القلب وبياض الرسالة والمنهج، وفيه طرح للزينة، وإظهار للمسكنة، وتذكر الموت حين يلبس الإحرام ذلكم اللباس الشبيه بالكفن فكأنه مستعد للقدوم على الله جلّ وعلا.

٣ – الإحرام من الميقات، التعبد والرق لله بطاعته والتشريع للشارع وحده، ووحدة الأمة وانتظامها وضبطها، أهمية الاجتماع والائتلاف، إدارك عناية الله وفضله حيث حدد له كل ما يعنيه في عبادته، وفي هذا قطع للتردد والشك والوسوسة، ومنع للفرقة والاختلاف، فقد يقول قائل : إن الإحرام من هذا أفضل وآخر يقول : لا بل من هذا أكمل...

٤ – الحج شعار التوحيد من أو ل لحظة يتلبس به الحاج : قال جابر بن عبد الله : " ثم أهل بالتوحيد لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك " رواه مسلم ، وقال أنس في وصفه لإهلال رسول الله ﷺ أنه قال : " لبيك عمرة لا رياء فيها ولا سمعة " تربية النفس على توحيد الله والإخلاص له. فإن الحاج يبدأ حجه بالتوحيد، ولا يزال يلبي بالتوحيد، وينتقل من عمل إلى عمل بالتوحيد.

وتحمل التلبية معاني عديدة منها :

- بمعنى إجابة بعد إجابة وكررت إيذانا بتكرير الإجابة، فتتضمن إجابة داع دعاك ومناد ناداك، ولا يصح في لغة ولا عقل إجابة من لا يتكلم ولا يدعو من أجابه.

- انقياد لك بعد انقياد مأخوذة من " لبب الرجل " إذا قبضت على تلابيبه، والمعنى: انقدت لك وسعت نفسي لك خاضعة ذليلة، كما يفعل بمن لبب بردائه وقبض على تلابيبه.
- أنها مأخوذة من لب بالمكان، إذا أقام به ولزمه، والمعنى أنا مقيم على طاعتك ملازم لها، فتتضمن التزام دوام العبودية.
- أن معناها حبًا لك بعد حب من قولهم " امرأة لَبَة " إذا كانت محبة لولدها، ولا يقال لبيك إلا لمن تحبه وتعظمه.
- تتضمن الإخلاص مأخوذ من لب الشي، وهو خالصه، ومنه لب الرجل عقله وقلبه.
- تتضمن الاقتراب مأخوذة من الإلباب وهو الاقتراب، أي اقتراب إليك بعد اقتراب.
- أنها شعار التوحيد ملة إبراهيم، الذي هو روح الحج ومقصده، بل روح العبادات كلها والمقصود منها، ولهذا كانت التلبية مفتاح هذه العبادة التي يدخل فيها بها.
- وتشتمل التلبية على :

– الحمد لله الذي هو من أحب ما يتقرب به العبد إلى الله.

– وعلى الاعتراف لله بالنعمة كلها، ولهذا عرفها باللام المفيدة للاستغراق، أي النعم كلها لك، وأنت موليه والمنعم بها.

– وعلى الاعتراف لأن الملك كلها لله وحده، فلا ملك على الحقيقية لغيره. (انظر مختصر تهذيب السنن لابن القيم ٢\٣٣٥-٣٣٩)

٥ – يشعر الحاج وهو يلبي بترابطه مع سائر المخلوقات حيث تتجاوب معه في عبودية الله وتوحيده، يقول الرسول ﷺ : "ما من ملب يلبي إلا لبى ما عن يمينه وعن شماله من شجر وحجر حتى تنقطع الأرض من هنا وهنا" يعني عن يمينه وشماله. رواه ابن خزيمة والبيهقي بسند صحيح

٦ – تذكر الآخرة حين يجتمع الناس في صعيد واحد في عرفات وغيرها ليس بينهم تفاضل ولا تغاير الكل في هذا البلد سواء لا فضل لأحد على أحد فيه.

٧ – الحج شعار الوحدة فإن الحج جعل الناس سواسية في لباسهم وأعمالهم وشعائرهم وقبلتهم وأماكنهم، فلافضل لأحد على أحد: الملك والمملوك الغني والفقير الوجيه والحقير في ميزان واحد ... الخ.

فالناس سواسية في الحقوق والواجبات، وهم سواسية في هذا البيت لافضل للساكن فيه على الباد والمسافر فهم كلهم متساوون في البيت الحرام لافرق بين الألوان والجنسيات وليس لأحد أن يفرق بينهم.

وحدة في المشاعر ووحدة في الشعائر، وحدة في الهدف، وحدة في العمل، وحدة في القول "الناس من آدم، وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى"

أكثر من مليوني مسلم يقفون كلهم في موقف واحد، وبلباس واحد، لهدف واحد، وتحت شعار واحد، يدعون ربًا واحدًا، ويتبعون نبيًا واحدًا.. وأي وحدة أعظم من هذه.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الحج ٢٥)

٨ – تربية على القناعة في اللباس والسكن حيث يلبس خرقة من قطعيتين فتكفيه، ويسكن في مكان بقدر نومه فيغنيه.

٩ – إرهاب أهل الكفر والضلال بهذا الاجتماع العظيم للمسلمين فإنهم وإن كانوا مفترقين مختلفين فإن مجرد اجتماعهم على اختلافهم في وقت معين ومكان معين يدل على إمكان اجتماعهم في غيره.

١٠- بيان أهمية الاجتماع والتآلف بين المسلمين فإن كل إنسان تجده يسافر لوحده بينما عند الحج تجده مع مجموعه.

١١- التعرف على أحوال المسلمين من خلال المصادر الموثوقة، حيث يسمع المسلم من أخيه مباشرة.

١٢- تبادل المنافع والخبرات بين المسلمين عامة.

١٣- اجتماع أهل الرأي والعلم والحل والعقد من جميع البلدان وتدارس أحوال المسلمين وحاجاتهم، وأهمية تضامنهم وتعاونهم.

١٤- تحقيق عبودية الله تعالى في وقوفه في المشاعر ورميه للجمار. مع تركه للحرم الذي هو أفضل من تلك البقاع

١٥- غفران الذنوب " من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه "

١٦- فتح باب الأمل لأهل المعاصي وتربيتهم على تركها ونبذها في تلك المشاعر ؛ حيث يتركون كثيرًا من عاداتهم السيئة خلال فترة الحج وفي المشاعر.

١٧- بيان أن الإسلام دين النظام ففي الحج ترتيب للمناسك والوقت فلا يتقدم شيء على الآخر كل عمل في مكانه وفي وقته المحدد له.

١٨- تربية النفس على النفقة في وجوه الخير والبعد عن الشح فالحاج يبذل الأموال الكثيرة من أجل الحج في الراحلة وفي الطريق وفي المشاعر.

١٩- اكتساب تقوى القلوب وصلاحها بتعظيم شعائر الله. يقول الله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحج : ٣٢) .

٢٠- تربية للأغنياء بترك تميزهم في لباسهم وسكنهم ومساواتهم للفقراء في اللباس والمشاعر من طواف وسعي ورمي. وفي هذا تربية لهم على التواضع، ومعرفة حقارة الدنيا.

٢١- مداومة الحاج على الطاعة وذكر الله تعالى في أيام الحج وهو ينتقل من مشعر إلى مشعر ومن عمل إلى آخر وهذا بمثابة دورة سنوية مكثفة في طاعة الله وذكره

٢٢- تربية النفس على الإحسان إلى الناس فيرشد الضال، ويعلم الجاهل، ويساعد الفقير، ويقف مع العاجز والضعيف.

٢٣- التخلق بالأخلاق الحسنة من الحلم وتحمل الأذى من الخلق، فإن الحاج لابد له من أن يتعرض لمزاحمة أو مخاصمة أو غير ذلك. قال تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾. (البقرة : ١٩٧) .

٢٤- التربية على الصبر وتحمل المشقة من حر وطول طريق وبعد عن الأهل وتردد بين المشاعر وزحام فيها.

٢٥- التدرب على ترك العادات والتقاليد والمألوفات، فإن الحاج ملزم بكشف رأسه وترك لباسه. وسيترك ما اعتاده من سكن وطعام وشراب.

٢٦- في سعي الحاج بين الصفا والمروة يتذكر أن من أطاع الله وتوكل عليه واعتصم به فإنه لا يضيع ويرفع ذكره فهذه هاجر أم إسماعيل عليهما السلام لما قالت لإبراهيم : " آلله أمرك بهذا " قال : " نعم " قالت : اذهب فلن يضيعنا " فرفع الله ذكرها وبدأ الناس يسعون مثلها بما فيهم الأنبياء عليهم السلام.

٢٧- تربية النفس على عدم اليأس من روح الله مهما اشتدت الخطوب وعظمت الكروب فإن الله بيده الفرج فهذه أم إسماعيل كاد وليدها يهلك وبدأت تركض من جبل إلى آخر تتطلع للفرج فأتاها من حيث لا تحتسب إذ نزل الملك فضرب الأرض فخرج ماء زمزم.

٢٨- ماء زمزم وما فيه من شفاء لأمراض القلوب والأبدان.

٢٩- يتذكر الحاج أنه في هذه المشاعر في ضيافة الرحمن فاجتماع الحج لم تدع له حكومة ولا هيئة ولا ملك ولا رئيس، إنما دعا إليه رب العالمين، وجعله مقاما يلتقي فيه

المسلمون على قدم المساواة لا فضل فيه لأحد على أحد . قال تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ... ﴾ (الحج : ٢٧ ، ٢٨) وروى النسائي عن أبي هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفْدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَلاثَةٌ الْغَازِي وَالْحَاجُّ وَالْمُعْتَمِرُ.

٣٠- الموالاة للمؤمنين يتمثل ذلك بقوله ﷺ "إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا"

٣١- موسم الحج هو الموسم الوحيد الذي تبرز فيه المفاصلة التامة مع أهل الشرك والكفر ويحظر عدم حضورهم بأي وجه كان. حيث حظر عليهم دخول منطقة الحرم في كل وقت مهما كان المقصد قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ٢٨). أخرج البخاري أن أبا هريرة قال : " بعثني أبو بكر ﷺ في تلك الحجة في المؤذنين ، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان" .